دور الجمهورية الاسلامية في بناء الحضارة الاسلامية

■ بقلم الشيخ توفيق حسن علوية
كاتب وباحث من لبنان

الحضارة بحسب مقابلاتها على عدة معان ، فهي تارة بمقابل التنقل تعني الاستقرار ، وهي بمقابل البادية والصحراء تعني المدنية ، وهي بمقابل التخلف تعني الحداثة ، وهي بمقابل الخفاء تعني الظهور ، وهي في مقابل الرمال تعني العمران ، وبالعموم الحضارة من حضر اي شهد وظهر ، فهي كل شيء شاهد على شعب من الشعوب او امة من الامم . وجاء في بعض قواميس اللغة : الحضر خلاف البدو ، والحضارة السكون بالحضر كالبداوة ثم جعل ذلك اسما لشهادة مكان أو إنسان أو غيره . وجاء في تعريف اخر : الحضارة لغةً تعني الحضر

أي عكس معنى البداوة، وهي تدل على نوع خاص من الحياة والرقي بالإضافة إلى الاستقرار . أما بالنسبة للحضارة اصطلاحاً فيقصد بها النظام الاجتماعيّ المتبع، والذي يعين الإنسان على زيادة الناتج الثقافي .

ومن المعروف استقرائيا بالاستقراء الناقص أنّ الحضارة تقوم على أربعة عناصر أساسيّة هي:

١ - الموارد الاقتصادية

٢ - النظم السياسية

٣ - العلوم والمعارف والفنون

٤ - الاخلاق والقيم

٥ - العمران والبناء

وهذه العناصر الخمسة لا يمكن لها التكامل الا في ظل مقولة الامن بقدر متيقن ، فما دام هناك خوف وحروب فلا تكامل للحضارات .

ويظهر ان الحضارات عملية تراكمية ، فكل حضارة تتكامل مع من قبلها وترفد من بعدها .

بناء على ما تقدم نفهم معنى التربية الحضارية في القران ومفاهيم الاسلام ، اذ انها عبارة عن تنمية القدرات والطاقات البشرية الجسدية والعقلية والخلقية وتسييرها نحو الكمال الانساني من خلال تسخير الموارد الاقتصادية والنظم السياسية العادلة والعلوم والمعارف والفنون لكي تعيش سمو القيم الدينية والاخلاقية ، وعلى هذا فإن المسلم في ظل التربية الحضارية القرانية يستطيع بناء حضارة مادية ومعنوية عالية الفعالية ومتقدمة ومتطورة ، لا كما يحصل الان حيث يعيش المسلم شعار المعنوية بينما هو متكئ على حضارات الاخرين ، وانما يقوم بالجمع بين حضارته المادية والمعنوية .

من المعلوم ان بناء الحضارات كما اسلفنا هو امر تراكمي ، وقد ساهم الاسلام في رفد الحضارات التي اتت بعدها كما انه احدث قفزة مهمة جدا في اكتمال الحضارات التي قبلها ، وهذا هو اعتراف العلماء والمؤرخين من غير المسلمين ، حيث يقول " جان ديون پورث " العالم الإنجليزي المشهور كما ذكر صاحب كتاب تفسير الامثل : " لقد حول محمد العربي البسيط، القبائل المتفرقة والجائعة، الفقيرة في بلدة إلى مجتمع متماسك منظم، امتازت، فيما بعد - بين جميع شعوب الأرض بصفات وأخلاق عظيمة وجديدة .

ويكتب " نهرو " العالم والسياسي الهندي الراحل في هذا الصدد قائلا : ولقد كان محمد واثقا بنفسه ورسالته، وقد هيأ بهذه الثقة وهذا الإيمان لأمته أسباب القوة والعزة والمنعة " .

ان ادنى مقارنة بين اوروبا وقرطبة يعطيك انطباعا واصحا عن الفارق الشاسع بين الحضارة الاسلامية انذاك وغيرها من الحضارات ، فقد كانت قرطبة مليئة بالانوار واوروبا غارقة بالظلام ، ناهيك عن موضوع التنظيم المدني واستقلال الانسان في معيشته عن الحيوانات وهكذا .

ان ايران قبل انتصار الثورة الاسلامية المباركة كانت تعيش الحضارة بتجليات عديدة ومتنوعة ، ومع انتصار الثورة الاسلامية المباركة والى الان مرت الجنهورية الاسلامية في ايران بمرحلة هدارة وها هي الان تبتدا مرحلة ثانية ، وقد اطلق الامام الخامنئي دام ظله على المرحلة الاولى مصطلح (الخطوة الاولى) وعلى المرحلة الثانية مصطلح (الخطوة الثانية) .

في الخطوة الاولى كما يظهر من الحياة الاسلامية في ايران كانت هناك حضارة اسلامية تتأسس وتتكرس ، فالحضارة الاسلامية عاشت طور التأسيس والتكريس في الخطوة الاولى على سائر الصعد والجوانب الخمسة التي ذكرناها اي الموارد الاقتصادية، النظم السياسية ، العلوم والمعارف والفنون ، والاخلاق والقيم ، والعمران والبناء .

وقبل اظهار معالم الحضارة الاسلامية في الجمهورية الاسلامية في ايران وما هي متطلبات الخطوة الثانية ، ينبغي الالتفات الى امر مهم وهو ان الحضارة الاسلامية لا تتنكر للحضارات الاخرى ولا تدعو الى إلغاء الحضارات ، وانما تقبل بجميع الحضارات التي لا تتنافى مع الاسلام وبنفس الوقت تقدم نفسها للعالم بوصفها الحضارة المحتضنة لكل المنتجات البشرية اللامتعارضة مع الاسلام ، ومن هنا نفهم مغزى عدم هدم الاهرامات بالرغم من كونها في مرحلة ما تحت سيطرة المسلمين ، وكذا في المعالم الحضارية الاخرى بالرغم من حاكمية الاسلام .

اننا اذا رجعنا الى دور الجمهورية الاسلامية في تاسيس وتكريس الحضارة الاسلامية بالخصوص ورفد الحضارة العالمية بالعموم نجد ان الثورة الاسلامية ومنذ انتصارها قامت باظهار الحضارة الاسلامية المستبطنة حقيقة في النسيج الاجتماعي الايراني ، فمن ناحية النظم السياسية حصل تحول سياسي على النقيض من النظم السياسية التي كانت سائدة واهمها السيادة في السياسة ، فمن المعلوم ان ايران قبل انتصار الثورة الاسلامية كانت نظمها السياسية مرتهنة للغربيين بينما اتت الثورة الاسلامية لتجعل النظم السياسية عبارة عن نظم متحررة ، وهذا من شأنه اظهار الحضارة من الناحية السياسية حيث ظهر للعالم ان اغلب الانظمة العالمية تابعة والقليل منها يعيش التحرر والاستقلالية ومنها الجمهورية الاسلامية في ايران ، كما اننا اذا دخلنا الى الاشعاعات الحضارية الداخلية للنظم السياسية نجد ان احد اهم معالمها هو ان النظم السياسية والادارية مرتبطة بمفهوم الخدمة الالهية ، اي ان المراكز والمناصب والوظائف انما هي في سبيل الخدمة الالهية وليست لاجل اي هدف اخر ، وهذا من جهة ومن جهة اخرى فإن النظم السياسية داخل الجمهورية الاسلامية في ايران لا تتخذ من تعريف ان السياسة فن الممكن وانما السياسة هي تلك السياسة القائمة على المبادئ والمنهجيات وان الغاية السليمة تبرر الوسيلة السليمة

ولا تبرر الوسيلة الدنيئة كما هو الشائع ان الغاية تبرر الوسيلة ، واهم دليل على ذلك ان فلسطين من الناحية السياسية ما زالت قضية مبدئية ، وان قضايا الشعوب والانحياز للشعوب المستضعفة هي من اهم المبادئ وهكذا ، وانت خبير ان مقياس ومعيار نجاح النظم السياسية في اي دولة في العالم انما يتم من خلال مجموعة عوامل منها الحصار وعدم الحصار ، وتداول السلطة وعدم تداول السلطة ، ومعاداة الدول الكبرى او موالاتها ، والتاييد الشعبي وعدم التأييد الشعبي ، وغير ذلك ، والجمهورية الاسلامية في ايران كانت ولا تزال محاصرة عالميا واقليميا بل ومحاربة ومع ذلك اثبتت النظم السياسية فيها كل نجاح وحضارية وهذا يختلف تماما مع اي دولة لا تخضع للحصار ولا للحرب ، وايضا الجمهورية الاسلامية في ايران تعيش تداول السلطة منذ تاسيسها وحتى في الحرب كانت تجري الانتخابات ، وبعض القنوات التلفزيونية عندما زار رئيس جمهورية ايراني سابق بلدنا لبنان استخدمت هذه العبارة : رئيس سابق . عجيب . لان الرؤساء في الشرق عادة كما يقال اما يموتون واما يقتلون ولا ثالث ، وايضا الجمهورية الاسلامية في ايران تعيش الاستقلال عن الدول الكبرى وتتعاطى مع الدول الكبرى من باب الندية لا من باب التبعية وهذا احد التعابير المهم عن الحضارية ، فالانظمة الحضارية معروف عنها انها مستقلة حتى لو تعرضت لسائر الاخطار وشتى صنوف الحصار ، فهذه الملكة زنوبيا على سبيل المثال يقول عنها ملك الروم انني لم استطع هزيمة روح زنوبيا الاستقلالية بالرغم من اعتقالها .

ان الجمهورية الاسلامية في ايران تعيش جو السيادة الشعبية والتاييد الشعبي ، وهذا من اهم النجاحات ، اي الالتصاق بالشعب وعدم البينونة عنه البتة .

واما من ناحية الحضارة تحت عنوان العلوم والفنون فتستطيع معرفة ذلك من خلال الكثير من التقارير التي تتحدث عن التطور العلمي والطبي والفني في ايران في مجالات مختلفة مثل النانو والتكنولوجيا، وبحوث الخلايا الجذعية، وعلوم الوراثة، والهندسة الكيميائية، وبحوث الفضاء، والهندسة الزراعية، وأنظمة الاتصالات بالليزر، وعلوم الكمبيوتر والإلكترونيات، وغيرها، وهو ما يسمى علمياً الاستثمار الداخلي الرابح خاصة اذا أدركنا أن الشباب دون الثلاثين عاماً في ايران نحو ٦٠٪ من نسبة السكان، وشريحة كبيرة منهم من حملة الشهادات الجامعية العليا ، كما اضحت ايران مقصدا للمرضى الذين يعانون من أنواع مختلفة من السرطان إلى مركز الدم وزرع النخاع في مستشفى الدكتور شريعتي الذي له بنك من مخزونات الخلايا الجذعية الأكثر تقدما في العالم ، بالاضافة الى توافد مئات مرضى الكبد من الشرق الاوسط الى مدينة شيراز (وسط البلاد) المركز الأول لزراعة الكبد في المنطقة.

وفيما يتعلق بزراعة الأعضاء، فان ايران حققت تقدماً كبيراً في هذا المجال، وتتوقع الأبحاث التي أعدت حول التطور العلمي في ايران أن طهران ستصعد إلى الدرجة الأولى في "مجالات الاقتصاد والعلوم

والتكنولوجيا في منطقة جنوب غرب آسيا (التي تضم آسيا الوسطى، والمناطق القرغيزية، والشرق الأوسط والبلدان المجاورة)". وتشير الزيادة في الصادرات الإيرانية غير النفطية في الأعوام الأخيرة إلى السير باتجاه تحقيق هذا الهدف . ونقل موقع الوقت انه : "

وفي مجال الأبحاث العملية أيضا، دشنت الجمهورية الإسلامية الإيرانية، مطلع العام الحالي أول سفينة ابحاث عابرة للمحيطات، اطلق عليها اسم "الخليج الفارسي"، تابعة لوزارة "العلوم والابحاث والتقنيات" الإيرانية، وتضم سفينة الأبحاث هذه ٥ مختبرات متطورة خاصة بأبحاث الفيزياء البحرية، وعلم الأحياء البحرية، والكيمياء البحرية، ويمكن لهذه السفينة أن تبحر لـ٤٥ يوما بسرعة ١٥ عقدة بحرية ومن دون الحاجة الى الرسو في الموانئ، كما يمكنها أخذ عينات من رسوبات قاع البحر على عمق ٣ آلاف متر "

ان التطور العلمي في ايران أرخى بظلاله بشكل كبير على المنجزات الدفاعية في البلاد، اذ كشفت طهران أوائل الشهر الحالي عن خمسة منجزات تسليحية جديدة هي: صاروخ فجر ٥ الموجه، صواريخ منظومة ميثاق ٣ المحمولة على الكتف، نظام اطلاق القنابل اليدوية بعيار ٤٠ ملم وعتاد متطور، سلاح مصاف الفردي بعيار ٥،٥٦×٤٥ بالإضافة الى مسدس جديد محلي الصنع وخطوط انتاج هذه الأسلحة. ولم يقتصر الاقتدار العلمي الايراني على هذا الحد خاصة في ظل التطور الكبير الذي تحققه طهران في مجال صناعة الصواريخ الباليستية بعيدة المدى ضمن نظامها الدفاعي، مما دفع واشنطن للاعتراف بالتفوق الايراني في هذا المجال .

اما من ناحية الفنون فالتقارير تتحدث عن نجاحات باهرة على الصعيد الفني والابداعي ، فمن ناحية السينما والتلفزيون والمسرح استطاع ابناء الجمهورية الاسلامية نقل الفن من فن يحاكي العائلة والشكليات والسفليات والدونيات الى فن اصيل يلامس الحقائق الكبرى ، ويكشف عن جواهر الامور ، وينقل رسائل الناس من خلال محاكاة كل اجهزة الاستقبال المعرفية والعاطفية والوجدانية الموجودة عند الانسان ، كما انه فن ينتقد نفسه بلا اي حزازة ، ويصور المشاكل بقوالب متعددة ويضع الحلول لها ، كما انه فن استطاع نشر القيم بطريقة احترافية شهد لها اكابر الاختصاص في هذا الفن ، واللطيف اننا عندما نسمع بان المسلسل الايراني او الفيلم الايراني احتل المرتبة الفلانية عالميا ، وبان المخرج الفلاني الايراني اخذ الجائزة الفلانية كنا نستغرب كيف ان كل الاعمال الفنية الهابطة لم تنل ما ناله العمل الفني الايراني القيمي الجوهري بالرغم من عدم وجود ضوضاء حوله كما هو موجود في كثير من الاعمال الفنية الهابطة !

واما من ناحية الفنون الاخرى كالرسم والنحت وغيرهما فنستطيع معرفة ذلك من خلال التقارير التي تتحدث عن ذلك حيث ان النقوش والنحوت واارسوم الايرانية في غاية الشهرة ، ويكفينا نحن كمتشرعة ان نعلم ذلك من خلال النقوش الموجودة

على المقامات الشريفة ، علاوة على ذلك فهذه المعارض واضحة حيث ترى ذلك امامك بالوجدان والعيان بلا حاجة الى برهان .

اما العنوان الحصاري في ظل الجمهورية الاسلامية من ناحية العمران والبناء فيكفيك ما تراه من طراز العمارة الايرانية ، وهو طراز معروف ومشهور بابداعه ، وكما تعلم فإنك اذا دخلت الى اي بلد فستعرف حضارية هذا البلد من اول الامر من خلال عمرانه ، فاذا دخلت الى مصر فستجد الاهرامات الدالة على حضارة الفرعونيين ، واذا دخلت الى بعض الدول ووجدت الاثار الرومية ستتعرف على الحضارة الرومية ، والحضارة الفارسية بهذا السباق معروفة من ناحية العمران ، لكن هنا مسالة مهمة وهي : ان اي نظام يريد ان يصير حضاريا فان عليه ان يترك بصمات حضارية عدة في ارضه تدل عليه ، ومن هذه البصمات العمران ، فالدولة الفاطمية التي حكمت مصر تركت بصماتها العمرانية في ذاك البلد من دون الغاء الحضارة الفرعونية من خلال الحفاظ على اثارها ، لكنك مثلا اذا اتيت الى الدولة العثمانية التي حكمت مئات السنين في لبنان وسوريا مثلا ، فتبدوا كأنها لم تكن لانها لم تترك اي اثر عمراني يدل على حضارتها من جهة ، ونظامها السياسي وفكرها ذهب بذهابها ، وبقيت المعالم في لبنان وسوريا عبارة عن معالم رومانية من خلال الاثار العمرانية الموجودة كما بقيت المعالم السياسية فرنسية وما اشبه ، هنا في الجمهورية الاسلامية في ايران استطاعت الجمهورية الاسلامية تكريس الحضارة العمرانية والسياسية والعلمية في ايران بحيث انك اذا اتى اجيال واجيال الى ايران بعد مئات السنين ستظل الجمهورية الاسلامية من بوابة الحضارة حاضرة وثابتة ، لان المدن الايرانية صارت مجبولة بالثورة الاسلامية ، والعمران شاهد عليها وكذا النظم السياسية والناحية العلمية والفنية وغيرها . لاحظوا على سبيل المثال المساجد والمقامات .

اما الجمهورية الاسلامية من ناحية القيم والاخلاق فهي من اعظم الاشعاعات الحضارية ويكفيك ما رايناه في صلاة رئيس الجمهورية كممثل للقيم والاخلاق في قلب روسيا ، وتصفيق محلس الدوما الحار لمجرد وصوله الى مجلس الدوما قبل القاء كلمته .

بقي الحديث عن نقطتين :

الاولى: الموارد الاقتصادية : ففي الجمهورية الاسلامية في ايران يتم استثمار الموارد الاقتصادية الغنية رغم كل الحصار والحروب التي يتم شنها على هذا البلد استثمارا تماما وبإشراك جميع جهود الشعب وابداعاته ، بحيث يشعر كل ايراني قيمة ما هو متوفر في بلده من موارد اقتصادية غنية ، والموارد الاقتصادية من ناحية خاميتها تشكل عنصرا من عناصر الحضارة في هذا البلد ، كما يشكل استثمارها وتسخيرها للشعب ولمصالح الجمهورية الاسلامية في ايران عنصرا حضاريا اكبر . قارنوا بين اي بلد وبين ايران ، فما لا تنجزه دول غنية غير محاصرة بل ومدعومة من الغرب والقوى الكبرى تنتجه ايران بالرغم من الحصار والحروب عليها .

الثانية: وهذه النقطة نتحدث فيها عن عوامل انتصار الثورة الاسلامية في ايران التي كان لها الدور البارز في رفد الحضارتين الاسلامية والعالمية ، وذلك في الخطوة الاولى على حد تعبير الامام الخامنئي دام ظله ، نعم في ذاك التاريخ انطلق احد المولعين الذائبين بمحمد وال محمد عليهم السلام في ثورته المظفرة من عش ال محمد عليهم الصلاة والسلام ، من قم المقدسة ، انه الامام الخميني المقدس الذي اخذ من انوار محمد وال محمد قبسا من عشق فاشعل فيه قلوب الجماهير عشقا وهياما انتج انتصارا تاريخيا على الاستكبار العالمي من خلال قلع جذور الشاهنشاهية وزرع بذور الانتصارات الكبرى التي اثمرت الى الان انتصارات في لبنان وسورية واليمن وفلسطين والاتي اعظم !!

ولنجاح الثورة الاسلامية في ايران عدة اسباب ونقاط نذكر منها سبع نقاط عدا لا حصرا بشكل موجز :

النقطة الاولى : انتماء الامام الخميني قدس سره لمدرسة محمد وال محمد عليهم الصلاة والسلام : عقيدة وفكرا وفقها واخلاقا واداب وروحانية . وهو القائل : نحن نفخر باننا اتباع مذهب اخرج القران من المقابر !! اي لم يعد القران كتابا نقراه على الاموات وانما صار قائدا للحياة العامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ووو...

النقطة الثانية : ارتباط الامام الخميني قدس سره بالله المتعال : وهذا الذي امده مددا عجيبا بحيث انه استغنى عن الشرق والغرب فاغناه الله المتعال من فضله !! بل صار الشرق والغرب بسبب هذه البصيرة العظيمة للقائد المرتبط بالله بحاجة لايران الاسلام دون العكس كما نشاهد ذلك عيانا الان !

النقطة الثالثة: ايمان الامام الخميني قدس سره بالشعب والمراهنة عليه بعد الله : ولهذا كان يعمل دائما على ان يكون للشعب كلمته ووقوفه مع القيادة ؛ ولهذا لم يسمح للانتخابات ان لا تخاض !! وفي كل شي لا بد للشعب من كلمة يقولها !! وكان يصارح شعبه بالالام والامال ويدعوه لتحمل المسؤولية !! ولهذا المغزى كان سر تسمية النظام بالجمهورية الاسلامية !! ان ثقة القائد بالشعب انعكست ثقة للشعب بالقائد !! ولهذا اتاه الشعب قائلا بلسان الحال: لا نقول ماذا نريد من الثورة بل نقول ماذا تريد الثورة منا !!

النقطة الرابعة: الاهتمام بالطاقات الشبابية واعطائها راية الثورة والتطور !!

النقطة الخامسة : التوجه نحو الطاقات

العلمية الخلاقة والهدارة وتسليمها مفاتيح الثورة لتوعية الشباب والنهوض بالثورة نحو الغد الافضل !! وهذا سر نجاح الجمهورية الاسلامية في العلم والتطور !! وهذا سر الانتصار النووي الذي اصبح ناجزا مؤخرا !! فاهتمام الامام الخميني قدس سره والسيد القائد الخامنئي بالطاقات العلمية اثمر مثل هذا الانتصار النووي !!!

النقطة السادسة: الاعتماد على الذات : وعدم الاعتماد على الشرق او الغرب . من مفاسد الثورات انها اذا كانت مستندة الى قوة غيرها فانها ترتهن للغير في حركتها ووقوفها . ولهذا راينا ان الثورات فيما يسمى بالربيع العربي المزعوم تصل الى السلطة بصورة قياسية وسريعة بينما هي لا تتجذر ولا تكون متينة في اعماقها بسبب ارتهانها للغير ، وهي بعد فترة غير طويلة تتلاشى وتغرق في وحول الفوضى !! بينما لاحظنا ان الثورة الاسلامية الايرانية اخذت وقتها وواكبتها التضحيات والدماء وتجذرت فيها الاصول الثورية والقواعد القيمية وهذا هو سبب استمرارها !! فهي لانها لم تستند الى الغير وانما الى تراثها الروحي والفكري الذاتي وامكانياتها الذاتية استمرت وستستمر !!

النقطة السابعة: واخيرا : الوصية : فقد اوصى هذا الامام العظيم بوصية تعطي للثورة افاقا مستقبلية مستحكمة لا تسمح للافكار الهجينة والالتقاطية الالتفاف عليها ولا تأويلها بما يناسب رغباتهم !! فهي تعطي للولي الفقيه الساهر على الامة الحجة امام الخصوم في حال قرروا الاحتجاج من جهة ؛ ولا تسمح للاعداء الالتفاف على الثورة باسم الثورة عبر ازلامهم ان توفر وجودهم في الداخل !! وانا انصح بقراءة وصية الامام قدس سره بتمعن !!

هذا على صعيد الخطوة الاولى ، اما على صعيد الخطوة الثانية فان المشهدية الحضارية في الجمهورية الاسلامية في ايران ستتراكم وتتراكب وتتضاعف بكل تاكيد لعدة اسباب واسباب وعوامل وعوامل ، ومن اهمها اهتمام القيادة بالتطوير وباعطاء كل القفزات العلمية والعمرانية والسياسية والفنية والقيمية كل مدى يمكن ان اصل اليه ، ومنها ايضا ان المجتمع الايراني مجتمع شاب يضج بالحياة ولديه ارادة قوية في صناعة الحياة ، ومنها ايضا ان الشعب الايراني تأقلم مع اجواء الحصار وهذا دفعه للاعتقاد بانه شعب ريادي ينبغي ان يكون واحده بالف وازيد ، وهذا بحد نفسه يشكل تيارا في مواجهة الاعداء خارجيا وبناء الذات داخليا ، ومنها ان الخطوة الاولى بكل جهودها وتجاربها وانجازاتها اسست الارضية القوية لانطلاقة تصاعدية تجعل من الجهود المضاعفة قبل جهودا مضاعفة اكثر لما هو بعد .